الرقم الدولي المعياري للمؤتمر (معتمد ومصنف دوليًا) ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية

22 - 24 أكتوبر 2025م الموافق 30 ربيع الآخر - 2 جمادى الأولى 1447هـ

دبي - الإمارات العربية المتحدة

الهيئات العربية والدولية أعضاء المجلس الدولي للغة العربية

المهارات البلاغية للطفولة المبكرة

د. لطيفة بنت سعود العصيمي

جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية

khademat_addeen@hotmail.com

الملخص :

يبدأ تدريس البلاغة العربية في الوطن العربي غالبا في مرحلة ما قبل الجامعة، وتقتصر الدراسة في الطفولة المبكرة على تعلم المهارات اللغوية، وهذا التأخر في تعليم البلاغة قد يكون له آثار سلبية على الإبداع والابتكار والنقد، فالبلاغة تضم أطراف العربية كلها، وتعبد الطريق الإبداعي في التعامل مع اللغة، لكن الإشكال يكمن في أن المحتوى البلاغي غير مناسب لهذه الفئة، فالقدرات الإدراكية والعقلية لم تصل إلى الحد الكافي لفهم المصطلحات البلاغية، ولا كيفية اشتغالها في النص، وهنا سؤال هذه الدراسة وإشكال وجودها: كيف نحوّل البلاغة العربية إلى مهارات يمكن تدريسها للطفولة المبكرة؟ هذه العملية ليست تبسيطا للبلاغة، وإنما عملية تحويل المحتوى البلاغي إلى محتوى مهاري، وهذا يتطلب استعمال المنهج التحليلي والتأويل التقابلي، حيث يؤخذ الفن البلاغي ويحلل تحليلا تفكيكيا؛ للوصول إلى آليات الاشتغال النصي والتداولي، ثم الاستفادة من هذه الآليات بمقابلتها مع علم النفس السلوكي، بحيث تحول هذه المعارف إلى سلوكيات قابلة للتحوّل إلى معارف فيما بعد، وتتناول هذه الدراسة عدة موضوعات تتمحور حول خصائص مرحلة الطفولة المبكرة، وأهمية المهارة السلوكية في النمو الفكري البلاغي، وآليات تحويل المحتوى البلاغي إلى محتوى مهاري، ثم مناقشة بعض مباحث علمي البيان والبديع وإمكانية تحويلها لمهارات تناسب طبيعة المرحلة الفكرية للطفل، وتطرح الدراسة طبيعة انتقال المهارة البلاغية إلى النص الإبداعي فيما بعد مع ذكر شواهد على ذلك من تاريخ الأدب، وتخلص الدراسة إلى نتائج من أهمها: أن البلاغة العربية تمتاز بقدرة تواصلية وتفاعلية عالية، وأن الفنون البلاغية يمكن تحويلها لمهارة سلوكية إبداعية مؤثرة في التفكير الناقد.

الكلمات المفتاحية: الطفولة المبكرة، المهارات، البلاغة، السلوكية، التداول.

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وبعد.

فإن المتأمل في واقع تدريس البلاغة العربية اليوم يجدها متأخرة الحضور، مع ما يكتنفها من غموض وصعوبات لدى المتعلمين، مما يدفع كثيرا منهم لحفظ الشواهد البلاغية وقولبتها، وهذا ما يلاحظه المتأمل في تكرار الشاهد البلاغي قرونا عديدة، مما أطاح بالبلاغة في بحر الجمود، ولعل التأخر في تدريس البلاغة حتى مراحل ما قبل الجامعة في الوطن العربي ساهم إلى حد بعيد في تأخر التفكير البلاغي الناقد؛ إذ إن البلاغة مرتبطة بالنقد من ناحية، والاستعمال اللغوي من ناحية أخرى، مما يدعو بالضرورة إلى التبكير في تعلم البلاغة وتعليمها، خاصة في مرحلة الطفولة المبكرة، وهي مرحلة مهمة في تشكيل شخصية الطفل، وبناء معارفه ومهاراته، فالتركيز على المهارات اللغوية مع إهمال المهارات البلاغية يؤثر سلبا على تلقي اللغة واستعمالها، فاللغة ليست أن يعرف القراءة والكتابة فحسب، ففي هذه المرحلة يجب أن يؤسس التفكير الناقد والإبداعي لدى الطفل من خلال تعلم البلاغة العربية، ومن هنا جاءت فكرة هذه الدراسة الموسومة بالمهارات البلاغية للطفولة المبكرة، حيث تتمحور مشكلة البحث حول كيفية تدريس البلاغة لهذه الفئة العمرية، فالطفل في هذه المرحلة لا يمكن أن يستوعب مباحث البلاغة في صورتها الراهنة، فلا يمكن أن يدرك المجاز والكناية والاستعارة والتورية وغيرها؛ لأن القدرات الإدراكية والعقلية لديه لم تصل بعد إلى حد الكفاية في تلقي تلك المعلومات، وهنا تنبثق عدة إشكالات: ما هي طبيعة التعلم في مرحلة الطفولة المبكرة؟، كيف يمكن أن نحول البلاغة إلى مجموعة مهارات يمكن للطفل أن يستوعبها؟، هل المهارات البلاغية قادرة على تعليم البلاغة؟ كيف نستخرج المهارة من الفن البلاغي؟ كيف تؤثر هذه الطريقة في نمو التفكير الإبداعي والنقدي لدى الطفل؟ وحتى يجيب البحث على هذه الإشكالات لا بد من تحليل المحتوى البلاغي عبر المنهج التحليلي ومنهج التأويل التقابلي، حيث يؤخذ الفن البلاغي ويحلل تحليلا تفكيكيا؛ للوصول إلى آليات الاشتغال النصي والتداولي، ثم الاستفادة من هذه الآليات بمقابلتها مع علم النفس السلوكي، بحيث تحول هذه المعارف إلى سلوكيات قابلة للتحوّل إلى معارف فيما بعد.

ولم تقف الباحثة على دراسة تناولت المهارات البلاغية بهذه المعالجة، بيد أن مصطلح "المهارات البلاغة" قد جاء في دراسات عدة مثل:

ـ واقع استخدام معلمي اللغة العربية لاستراتيجيات ما وراء المعرفة وأثره في تنمية المهارات البلاغية تطبيقا على طلاب المدارس الثانوية بمحلية أمدرمان، محسن ناصر عبد الله مفتاح، رسالة دكتوراه، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، أم درمان، 2019م.

ـ أثر استخدام بعض استراتيجيات التعلم النشط في تنمية المهارات البلاغية لدى طلبة الصف الأول الثانوي في الجمهورية اليمنية، فؤاد حسين الصالحي أحمد، مجلة المناهج وطرق التدريس، مج 2، ع 10، المركز القومي للبحوث، غزة، 2023م.

فهذه الأبحاث تعني بالمهارات البلاغية عمليات إتقان الطالب للتطبيقات البلاغية، وقدرته على استخراج الفن البلاغي وتحليله وشرحه، كما أنها تناولت المرحلة الثانوية وهي المرحلة التي يبدأ فيها تدريس البلاغة، أما هذه الدراسة فتعني الجوانب السلوكية المهارية التي تمكن الطفل من فهم البلاغة فيما بعد، وتتناول مرحلة الطفولة المبكرة.

واقتضت طبيعة الدراسة أن تقسم إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، تتناول المقدمة أهمية هذه الدراسة ومشكلة البحث وأسئلته، والمنهج المتبع وأدواته الإجرائية، والدراسات السابقة وخطة البحث، ثم التمهيد ويتناول مفهوم الطفولة المبكرة وخصائصها وأهمية تعليم الطفل البلاغة في هذه المرحلة، ثم المبحث الأول وفيه مفهوم المهارة وأنواعها، وعلاقتها بالسلوك وكيفية الوصول إليها من خلال فنون البلاغة، ثم المبحث الثاني ويتناول التحليل المهاري لبعض مباحث علمي البيان والبديع ونماذج لتطبيقات عملية، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج.

التمهيد

تعد مرحلة الطفولة المبكرة من أهم المراحل العمرية في حياة الإنسان، ففيها تتشكل معالم شخصيته، وطريقة تفكيره، وفهمه لنفسه وللعالم، فلا غرو إن قلنا إنها أخطر مرحلة حياتية، وما يأتي بعدها هو يبنى عليها، وينطلق منها، فهي كالبذرة تنمو بكل سماتها حتى تؤتي أكلها عند النضج.

وتبدأ مرحلة الطفولة المبكرة من سن الثالثة إلى سن السادسة (1)، أي مرحلة ما قبل المدرسة، وتتسم بخصائص تميزها غير غيرها، ومن أهم تلك الخصائص: (استمرار النمو بسرعة، ولكن أقل من سرعته في المرحلة السابقة، والاتزان الفسيولوجي، والتحكم في عملية الإخراج، وزيادة الميل إلى الحركة والشقاوة، ومحاولة تعرف البيئة المحيطة، والنمو السريع في اللغة، ونمو ما اكتسب من مهارات، واكتساب مهارات جديدة) (2)، فهي مرحلة النشاط والمرح، والتعلم السريع، والاكتشاف الممتع، والحركة المستمرة، وما يعنينا في هذه الدراسة هو النمو الحركي، والعقلي، واللغوي والاجتماعي.

فالنمو الحركي يتسم بازدياد قدرة الطفل على التحكم في أطرافه وضبط عضلاته تدريجيا، ويزداد نشاطه الحركي، كما أنه يحتاج إلى الحركة في نطاق واسع حتى ينضج لديه التوافق بين وظيفة الإبصار وحركات الأصابع، وتتمرن عضلاته مما يساعد على نموه بشكل سليم، أما نموه العقلي فهو ذو أهمية بالغة؛ إذ يكتسب الطفل معلوماته عن العالم الخارجي عن طريق حواسه، خاصة الإبصار والسمع واللمس، ومن مظاهر النمو العقلي في هذه المرحلة: التخيل والتفكير، حيث يبقى تفكير الطفل إلى سن السادسة أقرب إلى التخيل منه إلى التفكير المنطقي، فالتخيل يشغل حيزا كبيرا من النشاط العقلي للأطفال، كما أنه يكون قادرا على التذكر، بحيث يستطيع أن يعيد على مسمعك الألفاظ أو الأرقام التي قلتها له عقب انتهائك من سردها عليه، ويرتبط النمو العقلي بالنمو اللغوي، فالطفل في هذه المرحلة يستطيع تكوين جمل بسيطة، ولا يمكن الفصل بين التفكير والكلام (3).

وأبرز ما يميز هذه المرحلة هو النشاط الحركي المهاري، مع قدرة الطفل على اكتساب المهارات الجديدة، وهذه السمة تجعل التعليم الأمثل للطفل هو ما يرتبط بالسلوك الحركي، فاللغة المجردة لا تتناسب مع طبيعة نموه، مما يجعل المحتوى البلاغي في صورته الراهنة غير مناسب، إلا إذا تحول لمجموعة مهارات تنمي ملكة الإبداع والتفكير الناقد، ذلك أن الطفل لديه القدرة على التخيل والتمييز بين المختلفات، وكونه في مرحلة نمو عقلي ولغوي يجعل الحاجة ماسة لتعلم اللغة بطريقة مختلفة تتناغم مع مهاراته الحياتية ومع طبيعة اللغة التواصلية، بحيث تتشكل شخصيته وفقا لهوية عربية مميزة، فالنمو اللغوي (يتركز في مدى قدرة الطفل على استخدامها لنقل الأفكار، ومن جانب آخر فلكي يتم الاتصال بصورة فعالية مؤثرة فيجب أن يضع الطفل في اعتباره وإلى حد ما وجهة نظر المستمع، بمعنى أن الطفل في استخدام الكلام لعملية الاتصال, يجب كذلك أن يكتسب مهارات تمكنه أن يأخذ في اعتباره وجهة نظر المستمع إليه،

وهذه تسمى بمهارات الاتصال المرجعية) (4)، والبلاغة كما هو معروف تعني مراعاة الكلام لمقتضى الحال، أي أن هناك عملية تواصلية تجمع بين المرسل والمستقبل، هذا التفاعل مليء بالمهارات التواصلية التي تجعل عملية الاتصال فعالة، إذا وضعنا في الاعتبار أن البلاغة هي طريقة لاستعمال اللغة، فالبلاغة العربية لها قدرة فائقة على تنمية التفكير الإبداعي الناقد، وتحسين مستوى التواصل المجتمعي الفعال، والوصول بالطفل إلى شخصية متزنة قادرة على التحليل الإبداعي والابتكار، فما مفهوم المهارة البلاغية وكيف تحقق ذلك؟

ـ المبحث الأول: المهارة البلاغية تعريفها وآلياتها.

المهارة في اللغة تعني الحذق والإتقان، (يُقَالُ: مَهَرْتُ بِهَذَا الأَمر أَمهَرُ بِهِ مَهارة أَي صرتُ بِهِ حَاذِقًا. قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: وَقَدْ مَهَر الشيءَ وَفِيهِ وَبِهِ يَمْهَر مَهْراً ومُهُوراً ومَهارة ومِهارة) (5)، فهي القدرة على أداء العمل بإتقان حيث يقال: (مهارة يدوية، اكتسب مهارة في التصحيح، أدى مهمته بمهارة، عرف هذا العامل بمهارته في حفر الخشب، نجح المدرب في تطوير مهارة الفريق القومي) (6)، فالمهارة من خلال هذا التعريف تعني السلوك الناتج عن معرفة، وتكرار السلوك يحدث إتقانا وحذقا.

وتنقسم المهارة البلاغية إلى قسمين رئيسيين هما: المهارة التأويلية وتتعلق بالقدرة على استخراج الفن البلاغي وتحليله وشرحه وتذوقه، معتمدة على البلاغة التأويلية وهي: (علم الفهم البليغ للنصوص، تقوم على التبيّن التأويلي "التفهم"، وبلاغة التبيين التأويلي "التفهيم"، وبلاغة الإقناع بما فُهِم) (7)، فقراءة النص الأدبي تتطلب كفاية تأويلية للقارئ البليغ، تمكنه من سبر أغوار بلاغته، واستجلاء أسرار لغته، وإلا لم تكن لبلاغة النص قيمة إذا لم تقابلها بلاغة التأويل، فلو أن قارئا عاديا تناول نصا بليغا كقصيدة للمتنبي مثلا، ولم تكن لديه بلاغة تأويلية، لن يفهم النص بلاغيا، وسيكون حكمه عليه عاديا بناء على خلفياته المعرفية والتأويلية، وهذا القسم من المهارات ضروري لقراءة النص، لكنه لا يصنع مبدعا بليغا، كما أن النحو لا يصنع خطيبا، ولا يصنع العروض شاعرا؛ بل يتطلب تكاملا مع البلاغة الإنتاجية، لكن هذا القسم من المهارات يغذي موهبة النقد الإبداعي، ويصنع الناقد المحترف.

والقسم الثاني هي المهارة الإنتاجية وتعني القدرة على التأليف البلاغي واستعمال تلك الفنون في الكتابة والتعبير والخطابة وتمثلها في الواقع البلاغي، معتمدا على البلاغة الإنتاجية وهي: (مجموع البلاغات الموضوعية والفنية والتواصلية، التي إذا تحققت في نص ما استطعنا

أن نحكم له بصفة النص البليغ) (8)، فالبلاغة هي إيصال المعنى كاملا، مع مراعاة الكلام لمقتضى الحال، ومتى كان النص محققا للوظيفة الجمالية والإقناعية كان ذلك علامة بلاغته، وليس معنى ذلك أن يكثر في النص استعمال البديع أو التشبيه والكناية ونحوها من فنون البلاغة، إنما تؤخذ بقدر ما يخدم الموقف البلاغي، إذ تقوم البلاغة على قصدية ومقامية، وتتنوع القصديات بين المتكلم وقصدية النص والمخاطَب، كما أن المقامية تتنوع باختلاف الأحوال، ولكل مقام مقال.

والنص البليغ لا يولد من فراغ، وهنا يبرز السؤال الأهم: كيف استطاع المبدع أن ينتج هذا النص؟ إن عملية الإنتاج الإبداعي تتطلب مؤهلات لدى المنتج، فمعرفة الفن البلاغي وعناصره ليست كافية لإنتاجه في النص، فالتورية مثلا تقوم على لفظ له معنيان قريب وبعيد، يقصد معنى أحدهما دون الآخر، فالقصد المجرد للمشترك اللفظي وتخير لفظ له هذه الخصيصة، ووضعها في النص لا يعني أن الكاتب أتى بتورية بلاغية!، بل هو تصنع وتكلف مذموم في التأليف البلاغي، إذن المهارة الإنتاجية لا تقتصر على إبداعية النص فحسب، فالنص الإبداعي البليغ هو الشكل النهائي لعملية الإبداع، والنص يتولد ذهنيا، ويعيش في عقل المبدع، ينبع من ذاته وخبراته وموهبته، ويتصل بتفكيره، وترفده معرفته وثقافته، وتحكمه طبيعة مجتمعه وأعرافه، فهو يضع في اعتباره ماذا سيقول؟ وكيف سيفهم؟ وهذه هي أركان البلاغة المتمثلة في القصدية والمقامية، فالبلاغة كانت في طبع المتكلم أولا، ثم انتقلت إلى النص.

وعلى هذا فالمهارة الإنتاجية تأتي على مستويين: المستوى الأول مباشر يظهر في النص، في صورة قصيدة أو قصة أو رواية أو خطبة أو مقال، وهو موضع التأويل ومصدر التحليل، فلم نكن نعرف المجاز والتشبيه والتورية والطباق والجناس وغيرها لولا تلك النصوص، وهذه المهارة تتطلب دربة وسعة اطلاع، ولا تنفك عن المهارة التأويلية، فعملية التأويل تبدأ قبل إنتاج النص، حيث يكون المتلقي الخفي حاضرا لحظة التأليف، يضعه المبدع في اعتباره، وله سلطة على نصه، هذا المتلقي هو مجموعة الأعراف اللغوية والمعرفية والثقافية التي تؤثر في إنتاج النص، فالمؤلف يراعي الجمهور الذي يكتب له، ويراعي المتلقي الداخلي (الذي يتحتم حضوره داخل الخطاب اللغوي، وهنا يدخل المتكلم في دائرة الاعتبارات المطروحة عليه من هذا المتلقي؛ لأنه يقيم صياغته، ويشكلها نظميا على أساس حضوره من ناحية، ومواجهة ردود فعله من ناحية أخرى) (9)، مما يجعل العملية الإبداعية منسجمة مع المقامات المختلفة، وتقاس هذه المهارة بقدرة المبدع على توظيف الفنون البلاغية في النص.

أما المستوى الثاني من المهارة الإنتاجية فهو غير مباشر، يتمثل في السلوك، فاللغة تتصل بعمليات التفكير والإدراك، وتنتج من خلال أطر ذهنية، والتفكير الإبداعي (هو التفكير الذي يتضمن توليد وتعديل الأفكار بهدف التوصل إلى نواتج تتميز بالأصالة والطلاقة والمرونة والإفاضة والحساسية للمشكلات، ويعتمد على الخبرة السابقة للفرد، وعلى قدرة الفرد في عدم التقيد بحدود قواعد المنطق، أو ما هو بدهي ومتوقع من الناس) (10)، ولا بد أن ينتج عن هذا التفكير سلوك ما، إما أن يكون سلوكا لفظيا أو غير لفظي، لكنه لا ينفك عن الشخصية المبدعة، فالذكاء اللغوي والتفكير الإبداعي لا ينتج اللغة فحسب، فالكائن البشري ليس بآلة، كل جهاز فيه يقوم بمهمته معزولا عن بقية الأجهزة؛ وإنما يحدث تفاعل ديناميكي يصدر عنه سلوكه.

والسلوك اللفظي يصاحبه سلوك آخر غير لفظي، يعتبر شكلا من أشكال الإبداع غير المباشر، فتعابير الوجه وإشارات اليد والإيماءات ونحوها هي سلوك غير لفظي، يكون إبداعيا عندما يساند الوظيفة الجمالية للنص، يلجأ إليه المبدع ليرفد النص الجمالي، إما لقصور لغته عن أداء كل ما يجول بخاطره، فيجد في هذه الإشارات غير اللغوية تعويضا عن ذلك في بنية المعنى، أو لكونه شديد التفاعل مع ما أنتجه فكأن كل عضو فيه فم يتحدث، وهي مهارة إنتاجية تواصلية، لكنها في بنية بسيطة، يمكن ملاحظتها بسهولة، وهناك بنية أعمق بعمق دوافع السلوك الإنساني، فالفن البلاغي يمكن أن يظهر على شكل سلوك غير لفظي، ويكون وقتئذ بلاغة موقف، فكما أن اللفظ يصل إلى درجات البلاغة فكذلك السلوك، والعرب تقول: (رب حال أفصح من لسان) (11)، وبلاغة الموقف تقابل بلاغة النص، والفن البلاغي عندما يتمظهر في النص يكون له أصل في النسق الثقافي، ووشائج تربط المبدع بفنون بلاغية دون أخرى، فشاعر ما عندما يكثر من فن بلاغي على نحو خاص لا يمكن أن يكون ذلك في معزل عن طبيعته ونمط شخصيته وتفاعلاته الاجتماعية، فمثلا من يملك حس الفكاهة وخفة النفس، وهو ممسك زمام الإبداع تجري التورية في نصه عفوا دون تكلف، (مع أنه لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه، ويسهل عليه تناولها) (12)، فهذا الطبع يحمل سمات الفن البلاغي قبل أن يتشكل في النص، وبالتأمل في حياة شعراء يكثرون من فن بلاغي معين، نجد أن المهارة الإنتاجية تتمثل في سلوكياتهم أيضا، كالشاعر السراج الوراق، حيث تغلب عليه الدعابة، ويتمثلها كثيرا عبر التورية، يقول عنه الحموي في خزانته: (...إلى أن ظهر بعده السراج فجلا غياهبها بنور مشكاته، وتعاصر هو وأبو الحسين الجزار والنصير الحمامي، وتطارحوا كثيرا وساعدتهم صنائعهم وألقابهم في نظم التورية، حتى إنه قيل للسراج الوراق لولا لقبك وصناعتك

لذهب نصف شعرك) (13)، ومثله الشاعر الفارس أبو فراس الحمداني، حيث يغلب على شعره فن الطباق، والطباق يحمل معنى الكلمة وضدها، هذا التضاد لم يأت من فراغ، فأبو فراس كان أميرا فارسا يقضي حياته في الحروب، وهي مواجهات متضادة، فكأنه يجد نفسه في هذا الفن البديع (14)، وحتى تكتشف الفنون البلاغية في النسق والسلوك لا بد من معرفة آليات اشتغالها في النص ومقابلتها بالنسق، ومن ثم تنميتها بما يخدم الوظيفة البلاغية.

المبحث الثاني: المهارات الإنتاجية في الفنون البلاغية.

تظهر المهارة الإنتاجية في السلوك لدى المبدعين، ولأن السلوك البشري قابل للتعلم، فيمكن اكتشاف تلك الفنون البلاغية داخل الأنساق الاجتماعية والثقافية وتعلمها، بحيث ينمو الحس البلاغي لينتقل في النص، وينتج المهارات التأويلية والإنتاجية على حد سواء، وهذه الطريقة هي الأمثل في تحويل المحتوى البلاغي إلى محتوى مهاري للطفل في مرحلته المبكرة، ففي البلاغة العربية طاقة تواصلية فعالة ومركزة لا تنحصر في النصوص الإبداعية، وهي متفاعلة ما بين النص والنسق، لا يضر في أيهما بدأت عملية الإبداع، فظهور الفن البلاغي في النسق يؤدي إلى انتقاله في النص، كما أن ظهوره في النص يؤثر في وجوده في النسق على سبيل التأثير والتأثر (15)، وقد قيل عن العربية: (تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة) (16)، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخلق، والدين تأثيرا قويا بينا) (17)، والطفل في هذه المرحلة يتطور نموه العقلي والفكري والإبداعي، فليزم أن تكون هناك مقدمة تمهد لتلقي البلاغة، وهي مهارة اكتشاف النص البلاغي الذي ينقله من اللغة اليومية العادية إلى لغة إبداعية مختلفة، بطريقة تتوافق مع إدراكه، وطبيعة نموه، فالاستماع لنص بليغ يؤثر في هذه المرحلة على بنائه العقلي واللغوي، ويزيد في استعداده لتلقي الفنون، ويقوي حساسيته تجاه الإبداع، ويتأتى ذلك باستماعه لآيات القرآن الكريم، فالخطاب القرآني قد أصاب أعلى درجات البلاغة، ومع إعجازه إلا أنه ميسر التلاوة والحفظ، ويمكن للطفل في هذه المرحلة أن يحفظ منه ويردده ويستمع إليه، وإن لم يفهم عميق معناه، أو يدرك سر مبناه، لكنه ينمي عنده الإحساس بالجمال، ويثري حصيلته اللغوية، مما يساعد على تلقيه للفنون البلاغية على شكل مهارات سلوكية، يفهم كنهها إذا بلغ سن الإدراك التجريدي للغة، ثم تؤخذ بعد ذلك الفنون البلاغية لاستخراج المهارات السلوكية منها بما يتناسب مرحلة الطفولة المبكرة.

ويمكن للمحتوى البلاغي أن يتحول إلى محتوى مهاري سلوكي إذا عرفت طريقة اشتغال الفن البلاغي داخل النص، وآليات تداوله، بحيث تكشف تمظهراته داخل النسق، فلا يكفي في التورية مثلا أن نكتفي بالتعريف المشهور في كتب البلاغة، لأن الاقتصار على ذلك سيقودنا إلى المهارات الإنتاجية المباشرة، أو المهارات التأويلية، حيث تركز على النص، لكن بالنظر إلى فلسفة التورية، نجد أنها تقوم على عنصر الازدواج في الوجه والقفا، أي أن هناك تلاعبا في طريقة تفكير المتلقي، بحيث يفهم شيء ثم يكتشف خلافه لهدف ما، وهذا سلوك بشري شائع، يتمثل في مواقف الدعابة والمقالب، فهي تعتمد على الآلية ذاتها.

وفيما يلي تحليل لبعض فنون البيان والبديع مما تصلح مهاراته لهذه المرحلة موضع الدراسة.

ـ التشبيه: يقوم التشبيه على فكرة الربط بين المتشابهات، واستدعاء صورة ذهنية غائبة لصورة محسوسة حاضرة، فعندما نقول: الفتاة كالقمر، هناك صورة ذهنية مسبقة عن القمر وعنصر الجمال فيه، يستدعيها هذا التشبيه وإن لم يكن القمر حاضرا لحظة بناء التشبيه وتلقيه، فهناك جانب ذهني في التشبيه يساعد على إدراك العلاقات بين الأشياء، فالمهارة الناتجة هنا هي مهارة إدراك العلاقات بين الأشياء، ويكون طرحها للطفل عبر تحويل الصورة الذهنية إلى صورة محسوسة يراها، ثم يكتشف الرابط بينها، أو عبر لعب الأدوار بحيث يقوم بدور شجرة مثلا، ومن خلال التمثيل سيدرك الفرق بينه وبين الشجرة من ناحية، والرابط بينه وبينها من ناحية أخرى.

ـ الاستعارة: تثير الاستعارة مكامن الخيال، لأن اللفظ يستعمل لغير ما وضع له حقيقة، فمقولة: جاء الأسد، لا تعني ذلك الحيوان المفترس، فهناك علاقة بين اللفظتين تقوم على المشابهة، والمهارات المتصلة بالخيال لها دور كبير في تنمية العقل المبدع، فعندما نقول للطفل: أنت المهندس، أنت الطبيب، ونحوها من الأوصاف على هذا السبيل، ونقول له: جاء المهندس، جاء الطبيب، في الحقيقة ليس ثم مهندس ولا طبيب، إنما هو طفل في رياض الأطفال، لكن هذا سيحرك الخيال المبدع لدى الطفل من خلال استراتيجية الاستعارة، ويمكن تطبيقها عبر مهارة تقمص الشخصيات، فيشعر أنه هو، فيؤثر ذلك على تفكيره واختياراته، ويشعر بنشوة النجاح المسبقة التي تقوده للعمل الجاد، قد لا يكون مهندسا إذا كبر، لكن سيصبح مبدعا من نوع ما، فهناك علاقة (بين إبداع الكبار وطفولتهم، وأن الفرد المبدع يسعى لأن يكون مبدعا أو مبتكرا،

أو مكتشفا منذ طفولته، ويعمل على تحقيق هذا الهدف في حياته اللاحقة في المجال الذي يستأثر باهتمامه) (18)، فجذور الإبداع في مرحلة الرشد تعود إلى الطفولة المبكرة.

ـ الكناية: هي لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادته معه، أي اللفظ ولازمه، فهي تختلف عن المجاز والاستعارة، وتقوم على فكرة التعبير غير المباشر عن المعنى، وفهم هذا المعنى متوقف على السياق الاجتماعي والثقافي، فقولهم "كثير رماد القدر" للدلالة على الكرم لا يحمله اللفظ المباشر هنا، فكثرة الرماد لا تدل بالضرورة على الكرم، لذلك يتغير المعنى بتغير سياقاته الاجتماعية والثقافية، فعندما كان إكرام الضيف بإنجاز طعامه على النار والحطب، كان لوجود الرماد دلالة على ذلك بخلاف اليوم، والتمرس على أسلوب الكناية مما يذكي البديهة، ومنها مهارة إدراك العلاقة بين الجزء والكل، والداخل والخارج، لأن لازم اللفظ معنى إضافي، وهو نوع من دلالات الألفاظ، حيث يدل اللفظ على معناه دلالة مطابقة وتضمن والتزام، فتأخذ الكناية من هذه الدلالات البيانية دلالة الالتزام وتبنى منها، ومن هنا يدرك الطفل أن ليس كل كلمة تقال، وأن وجود البدائل ممكن دائما، فتكون الأنشطة قائمة على فكرة إيجاد البديل، فتنمي عند الطفل مهارة حل المشكلات والتطلع للأفضل، وهو معنى دقيق في الكناية.

ـ التورية: وتقوم على الإيهام بين لفظين، انطلاقا من الظاهرة اللغوية في المشترك اللفظي، وتدخل التورية في أساليب الدعابة والمرح، مما يجعلها ذات طبيعة مناسبة لمرحلة الطفولة المبكرة، فهي تنمي المهارات الاجتماعية، والعقلية، وتقوم فيها الأنشطة على ألعاب حركية تحمل الفلسفة ذاتها، كلعبة الغميضة مثلا، حيث الاختباء والاكتشاف، فعنصر المفاجأة في التورية يجعل الموقف البلاغي ممتعا، وتنمي لدى الطفل حس الدعابة وسعة الفكرة، وتساعد على الابتكار، فالطفل بطبيعته مكتشف صغير، وستقوده اللعبة إلى اكتشاف مزيد من التلاعب الإبداعي الذي تحمله التورية.

ـ الجناس: ويعتمد على فكرة التجانس والمماثلة والتوافق مع وجود الاختلافات، فالألفاظ يجمعها عدد الحروف، وأصواتها، وبنيتها الصرفية، مع اختلاف المعنى، والطبع البشري ميال لما يجانسه، والعقل مجبول على ملاحظة الأشباه والنظائر، فتنتج مهارات الانسجام والتعايش، والتفاعل داخل المجموعات المتشابهة، ويمكن للطفل أن يدرك التجانس من خلال أنشطة المجموعات، حيث يكون التجانس باللون أو العدد أو الشكل أو الميول والاهتمامات ونحو ذلك، ولكون الجناس يحمل جرسا مميزا، فيمكن أن تستثمر فيه مهارة حسن الرد، والمجازاة، كما

قيل: الجزاء من جنس العمل، والطفل يميل إلى تكرار ما يسمع، فيعطى الطفل ردودا مجانسة لما يقال له، وهو في المقابل سيتخذها لعبة، لأن التنغيم الصوتي يثير انتباهه، ومن أمثلة ذلك:

نعم: أنعم الله عليك.

أبشر: بشرك الله بما يسرك

طيب: طيب الله حالك

وهكذا.. فاستخدام هذه الاستراتيجية اللغوية يطور مهارات التواصل الفعال، والمهارات اللغوية، لأن الطفل سيتدرب لفظيا على اشتقاقات الألفاظ، فيبحث في قولك عن مفتاح يرد به عليك، مما يقوي بديهته بعد ذلك، مع ما يصاحب هذا من حسن أدب.

ـ السجع: ويعتمد على الجمل القصيرة التي تحدث إيقاعا صوتيا، فهو فن صوتي يخلق تأثيرا مميزا، والمتأمل في مباحث علم البديع يجدها غالبا تعتمد على استراتيجيات الصوت، فتعطي موسيقى داخلية من الجرس والإيقاع، وينتج عن ذلك المهارات اللغوية الحركية للطفولة المبكرة، فالطفل وقتئذ في نمو حركي مستمر، وللصوت ارتباط كبير بالحركة، (ومن وجهة النظر الموسيقية فإن الإيقاع الحركي يتمثل في استيعاب أعضاء الجسد للإيقاعات الموسيقية وتأديتها بطريقة مناسبة حركيا) (19)، ومن هنا تقوم الأنشطة في هذه المرحلة على استثمار الموسيقى اللغوية، إذ إن استجابة الطفل لها أسرع وأعمق، والألعاب الإيقاعية (ضرورة لتنمية التوافق الحسي الحركي عند الطفل، وهو وسيلة تربوية مهمة في هذه المرحلة، وتلعب التربية الموسيقية دورا مهما في هذا الصدد) (20)، وتشمل الموسيقى اللغوية: الجرْس، والإيقاع الصوتي، والنبر، وهي مكونات أساسية في اللغة الإبداعية، يضاف إليها التلحين والتنغيم الصوتي، الذي يكسب اللغة تأثيرا صوتيا إضافيا، كما في الشعر الغنائي الملحن، فتستبدل الآلات الموسيقية المجردة من الكلمات، بالخصائص الصوتية في اللغة الإبداعية، ويتفاعل الطفل مع اللغة المبدعة حركيا، فإذا أعطي الطفل نشيدا بسيطا عن الشجرة وعلاقتها بالإنسان مثلا، يحمل إيقاعا صوتيا كما في السجع، وتلقاه بتنغيم صوتي حركي، فهو سيدرك الفنون البلاغية بسهولة، كالتشبيه مثلا، لأن الإشارة والإيماءات والحركات بأنواعها قد تحمل التشبيه والصور البيانية، فيسهل إدراكها وفهمها، إذ ترتبط الحركة بالصوت بالمعنى، وهي (انعكاس للإيقاع الأساسي للنشاط العقلي) (21).

وهكذا فإن الطفل لن يصل إلى جماليات النص الإبداعي إلا من خلال الأنشطة الحركية التي تنسجم مع نموه العقلي والانفعالي واللغوي والاجتماعي، لذلك فإن المهارات البلاغية لهذه المرحلة تقوم على الأنشطة والألعاب الحركية المختلفة.

الخاتمة.

وبعد، فتخلص هذه الدراسة لنتائج من أهمها:

أن البلاغة العربية تمتاز بقدرة تواصلية وتفاعلية عالية.

المهارات البلاغية متنوعة بما يناسب العمق البلاغي في التفكير، فمنها ما يخص الإنتاج الإبداعي ومنها ما يخص التأويل النقدي.

الفنون البلاغية يمكن تحويلها لمهارة سلوكية إبداعية مؤثرة في التفكير الناقد.

الألعاب الحركية ذات أبعاد بلاغية سلوكية، تنمي التفكير الإبداعي لدى الطفل.

الإبداع البلاغي في سن الرشد له ارتباط وثيق بمرحلة الطفولة المبكرة.

وكلنا أمل أن نساهم في بناء جيل مبدع، يعيد تشكيل الهوية العربية ليتسنم القيادة ومراتب الريادة، وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش.

(1) علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، د. حامد عبد السلام زهران، ط 6، عالم الكتب، القاهرة، 2005م، ص 203

(2) المرجع السابق، ص 203

(3) ينظر: علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، د. سعد رياض، ط 2، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2018م، ص 143 وما بعدها.

(4) علم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة، عادل عز الدين الأشول، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ، ص ٢٩٥

(5) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، ط 3، دار صادر، بيروت، 1414هـ، ج 5، ص 185

(6) معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق، ط 1، عالم الكتب، 2008م، ج 3، ص ٢١٣٣

(7) نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، محمد بازي، ط 2، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2020م، ص 463

(8) المرجع السابق، ص 463

(9) صناعة قراءة النص الإبداعي، تحرير د. مقبل بن علي الدعدي، مقال: أفق النص بين أوجه القراءة والتأويل للأستاذ الدكتور هاني فراج، ط1، تكوين للدراسات والأبحاث، 2016م، ص 66

(10) اللغة والتفكير الناقد أسس نظرية واستراتيجيات تدريسية، د. علي سامي علي الحلاق، تقديم أ. د. رشدي أحمد طعيمة، ط 1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007م، ص 31

(11) مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ج 1، ص ٣١٤

(12) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 5، دار الجيل، 1401هـ، ج 1، ص ٢٨٦

(13) خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار البحار، بيروت، 2004م، ج 2، ص ٤٨

(14) تناولت الباحثة هذا بالتفصيل في كتاب بلاغة التقابل ومستوياته في الخطاب الشعري، أبو فراس الحمداني أنموذجا، ونشر عام 1445هـ، مجموعة تكوين المتحدة للطباعة والنشر

والتوزيع، كما تناولت نسقية التورية وتمظهراتها في كتاب: التورية بين النص الإبداعي والنسق الثقافي، عام 2018م، من مطبوعات نادي مكة الأدبي ودار الانتشار العربي.

(15) عالجت الباحثة هذا الموضوع في كتاب: التورية بين النص الإبداعي والنسق الثقافي.

(16) عمدة الكتاب، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، ط 1، دار ابن حزم - الجفان والجابي للطباعة والنشر، 2004م، ص 37

(17) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، ط 7، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1419هـ، ج 1، ص ٥٢٧

(18) تنمية مهارات التفكير الإبداعي في مرحلة الطفولة المبكرة، عطا الله محمد إسماعيل أبو جبين، ع 9، رسالة التربية، وزارة التربية والتعليم، 2005م، ص 121

(19) الإيقاع الحركي لدى الأطفال، أحمد مجدي فهمي شرف، أحمد عبد الفتاح أحمد عياد، محمد حسين محمد سعد الدين الحسيني، المجلة العلمية لكلية التربية للطفولة المبكرة، مج 9، ع 2، جامعة المنصورة، كلية التربية للطفولة المبكرة، 2022م، ص 640

(20) علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، د. حامد عبد السلام زهران، ص 211

(21) ينظر: الإيقاع الحركي لدى الأطفال، ص 639

المراجع

1. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، ط 7، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1419هـ
2. الإيقاع الحركي لدى الأطفال، أحمد مجدي فهمي شرف، أحمد عبد الفتاح أحمد عياد، محمد حسين محمد سعد الدين الحسيني، المجلة العلمية لكلية التربية للطفولة المبكرة، مج 9، ع 2، جامعة المنصورة، كلية التربية للطفولة المبكرة، 2022م
3. تنمية مهارات التفكير الإبداعي في مرحلة الطفولة المبكرة، عطا الله محمد إسماعيل أبو جبين، رسالة التربية، ع 9، وزارة التربية والتعليم، 2005م

4. خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار البحار، بيروت، 2004م.
5. صناعة قراءة النص الإبداعي، تحرير د. مقبل بن علي الدعدي، ط1، تكوين للدراسات والأبحاث، 2016م
6. علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، د. حامد عبد السلام زهران، ط 6، عالم الكتب، القاهرة، 2005م
7. علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، د. سعد رياض، ط 2، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2018م
8. علم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة، عادل عز الدين الأشول، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ
9. عمدة الكتاب، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، ط 1، دار ابن حزم - الجفان والجابي للطباعة والنشر، 2004م
10. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 5، دار الجيل، 1401هـ
11. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، ط 3، دار صادر، بيروت، 1414هـ
12. اللغة والتفكير الناقد أسس نظرية واستراتيجيات تدريسية، د. علي سامي علي الحلاق، تقديم أ. د. رشدي أحمد طعيمة، ط 1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007م
13. مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ
14. معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق، ط 1، عالم الكتب، 2008م
15. نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، محمد بازي، ط 2، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2020م